محمد إقبال

فيلسوف الذات وشاعر العشق

الاستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي

كما يأنس الساري ليلاً بتأمل مواكب النجوم كذلك يرتاح الساعي في مناكب الحياة للنظر في سِيَر العظماء .

وقد تسأل أيها القارىء الكريم ، حين تلمح عنوان المقال : ما لهذه المجلة المتخصصة باللغة والتراث العربيَّيْن تُعنى بشاعر هندي باكستاني ولو كان ذا مكانة عالية في الشعر والفكر ! والجواب أن إقبالاً دوحة مباركة في رياض ذلك التراث العربي الإسلامي الواسع نست على أرضه وامتاحت من معينه وجرى في عروقها حبها له ولأهليه . ولا شك أنّ أبناء البلاد العربية انقطعت وشائجهم منذ حقبة بإخوانهم من بقيّة أبناء تلك الحضارة السمحة الشاملة واتصلت أسبابهم جميعاً بحضارة ضيقة الأعطان متعصبّة الأوطان فضيّقت عليهم مدى البصر ودفنت منهم عمق البصيرة . وقد آن أن نصل ما انقطع دون أن نقطع ما اتصل .

ثم إننا نظرنا إلى أجيال أدبائنا الحديثين فراعنا ضحل ثقافاتهم وتنكّبهم عن ينابيع التراث الثّرة وتقليدهم العَمِي لكل نأمة في الغرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دون البحث عن أصالتهم الذاتية • فأردنا أن نضرب للأصالة الذاتية مثلاً عالياً وهو شاعر مفكر قلّ من يشبهه في سعة الاطلاع على ثقافات الغرب مع التعمق المتبحّر في التراث الشرقي • وقد حلّق في سماء الشهرة فترجم له كبار المستشرقين كما سيأتي في المقال وقدموه على معاصريه • وإني لاذكر حديثاً للمستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسنيون جرى فيه الكلام على إقبال وطاغور ففضله على طاغور في العمق والموهبة • ونحن لا نحب الموازنة بين الشعراء والمفكرين ، فلكل طريقه الخاص وعبقريته الملهمة • ولكنا آثرنا أن نستشهد على مكانة إقبال بمستشرق مرموق لكي يهدأ بالك وتعلم أنا لا نتجاوز الاعتدال ولأنا نعرف أن فريقاً من الناس يزيد اطمئنانهم بأحكام أولئك الأجانب الذين لا تنكر جهودهم في ميادين الثقافة العربية الإسلامية •

إن إقبالاً نشأ في بلد « نامٍ » على حد التعبير الحديث كالبلاد العربية • ومع ذلك كان معتدّاً بشخصيته وعلمه وتراثه وقيم هذا التراث• ولم يَنْقصه اعتداده شيئاً بل زاده قيمة وعلاء •

ثم إننا في جميع مانكتب نرجع إلى خزائن اللغة العربية الواسعة الغنية ، فلا يخلو كل بحث لنا من نكتة لغوية نشير إليها أو رمز نشرحه أو سرٍّ نبوح به • فقد جرى حب اللغة في عروقنا منذ الطفولة مع دراساتنا المتنوعة المتعمقة • وإذا صادفك أيها القارىء الكريم تعبير أدبي أو إشارة فلسفية فلا تخش منا أن نتجاوز الأسلوب العلمي إذ كنا نستهين بالأساليب الجافة التي تحاول أن تتخذ لها من جفافها مظهراً علمياً وهي تبطن في تضاعيفها هرطقة وهذرا • إن العلم الحقيقي يعنى بالظاهر عنايته بالباطن • وقيمة الجمال متصلة في أعماق اصولها بقيمة الحقيقة •

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم إن هذا البحث يثير مشكلة الترجمة . فهل تتيسّر ترجمة الأدب ولا سيما الشعر من لغة إلى لغة أخرى ؟ وهل ثمة شروط لنجاح الترجمة ؟ وماهيَه ؟ وهل نجد أمثلة على نجاحها في مختلف اللغات المشهورة ؟ وإلى أي درجة يصحّ كلام الشاعر الألماني «غوتي» حين كتب في مؤلّفه «الشعر والحقيقة» مامعناه : « أحترم الإيقاع وكذلك القافية . بهما يكون الشعر شعراً . بَيْدَ أن العمق نفسه والإبداع الأصيل والثقافة الحقيقية هي ما يبقى من الشاعر بعد أن يُتَرجَم شعره نثراً . عندئذ يسكت المضمون الصرف . فإن غاب هذا المضمون برز بهرج الشكل تجاه أبصارنا وإذا حضر أخفاه وطواه . » أم نقول على حدّ ادعائنا نحن : إن الفكرة الفنيّة كقطعة من الذهب أو الماس . والشاعر المبدع هو الذي يفطن لها فيصوغها صوغاً ممتازاً فائقاً متأثراً بثقافته ولغته . وعلى المترجم ، بعد أن يردها الى أصلها ، أن يصوغها صوغاً جديداً في اللغة المترجم إليها . وعندئذ يحصل سباق أو مباراة بين المؤلف والمترجم في الإبداع . فقد تفوق الترجمة الأصل في الجمال وقد تتخلف عنه .

ومهما يكن من أمر فإن إقبالاً لم يُتَحْ له من يحسن ترجمة أشعاره خلا الصاوي شعلان مشفوعاً بمحمد حسن الأعظمي . على أنه ربما عالجنا بحث الترجمة بشكل عام في موضوع مستقل مقبل .

والآن هيا بنا نتأمل في بعض لياليا المظلمة تألق هذا الكوكب المنير في سماء التراث العربي الاسلامي بين بروجٍ لا تعد ولا تحصى من النجوم والكواكب .

★ ★ ★

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في سنة ١٨٧٧ أي قبل نحو مائة عام استقبل الحياة مستهلاً مولود في سيلكوت لأسرة كشميرية الأصل برهمية المحتد ، أسلست قبل عدة قرون في زمن السلطان زين الدين إلياس بود شاه ، ثم هاجرت إلى البنجاب ذات الطبيعة الفاتنة . وقد جاوبت هذا الاستهلال فرحة أبويه الفاضلين التقيين الشيخ نورمحمد والسيدةإمام بيبي . فرجوا أن يكون لهذا الوليد شأن أيّ شأن . اختارا له اسم محمد إقبال ، ثم عكفا على تنشئته وتربيته كأفضل ماتكون التربية والتنشئة . وفي كل مرحلة من مراحل النمو كان الطفل الناشيء واليافع اللامع يتجاوز في الأصالة والتفكر والعمق والبيان كلّ ماكان يُقدَّر له .

درس في كلية سيلكوت على عالم مشهور كان يشار إليه بالبنان في الأدبين الفارسي والعربي هو شمس العلماء مولانا مير حسن ، ثم انتقل بعدها إلى كلية الحكومة بمدينة لاهور حاضرة بنجاب ، فبرّز بين أقرانه ، وحاز جوائز متعددة . ولمح أستاذه المستشرق السر توماس أرنلد مخايل نبوغه . فلم يكد يتخرّج حتى عهد اليه بتدريس الفلسفة واللغة الانكليزية بالكلية نفسها . ثم هاهو ذا يسافر في تباشير القرن العشرين سنة ١٩٠٥ إلى أوربة شغفاً بالتحصيل العلمي العالي ورغبة في الاطلاع على مظاهر حضارة الغرب . فهو يجاز في الفلسفة من جامعة كمبردج . ثم ينتقل إلى ألمانية فتمنحه جامعة مونيخ شهادة الدكتوراة في الفلسفة . ثم يرجع الى إنكلترة فيحصل على شهادة المحاماة من جامعة لندن . وفي خلال ذلك كله يلقي محاضرات تتلامح فيها بوادر فلسفته العالية . ولم تكن تلك الشهادات كلها شيئاً بالنسبة إلى ينبوع العبقرية الثرّ الأصيل في قلب الفتى . فهو قد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قطف تلك الشهادات كما يقطف المتنزه في طريقه بعض الأزاهير التي تدل على مروره ببعض المعالم .

رجع إقبال من أوربة عام ١٩٠٨ فلقي استقبالاً حافلاً وعرضت عليه مناصب حكومية فأعرض عنها . إنه نزيه ، عفيف النفس ، يقنع بالكفاف ، ويرضى بالميسور ، كما عبر عن ذلك في بيت من ديوانه « رسالة المشرق »، قال :

« أنا لا أتحمّل دلال الملوك ، ولا جرح الإحسان ، يا من انخدعْتَ بالطمع ! انظر إلى همة هذا الفقير . »[1]

وإنما انصرف إلى الفكر والأدب فصنف ديوانين باللغة الفارسية هما « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » فنالا إعجاباً عاما . وترجم الأول المستشرق الشهير نيكلسن إلى الانكليزية ، فذاع صيت المؤلف في أوربة وأمريكة . ثم يتوالى الانتاج الفكري وتتلاحق ترجماته . ولعل من أعظم أعماله ديوانه المعروف « بيام مشرق » أي « رسالة المشرق » كتبه مساجلة للشاعر الألماني الكبير « غوتي » الذي ألّف « الديوان الشرقي للمؤلّف الغربي . » وترجم المستشرق الانكليزي أربري ديوان إقبال هذا ترجمة جميلة إلى الانكليزية بعنوان « زنابق سيناء » .

وقد حمله أصدقاؤه على ترشيح نفسه لعضوية المجلس التشريعي في إقليم بنجاب سنة ١٩٢٦ فانتخب عضواً ، وسعى سعياً حثيثاً لتخفيف الضرائب عن كاهل الفلاح الهندي ولإجراء إصلاحات اجتماعية متعددة . ثم انتخب عام ١٩٣١ عضواً في مجلس المائدة المستديرة المنعقد بلندن لإصلاح دستور الهند . وفي رجوعه زار القدس وأوجس مطامع الصهيونية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المأكرة ، كما زار مصر • ثم زار أفغانستان ليشارك فكرياً في تأسيس جامعة كابل • وقام بوجوه من النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي متعددة • وفي غضون ذلك كله لم يفتأ ذلك الصوت العبقري الذي قد رنّ في صدور أبويه مستهلاً يعلو ويسمو ويقوى حتى تجاوب في الآفاق العالمية دانيها وقاصيها • ولكن صاحبه كان يريد أن يبلغه أيضاً مسامع العرب • ذلكم أن عناصر ذلك الصوت إن كانت في الأصل هندية فان جرسها المتاز وروح نبراتها عربيّان • يقول في ختام قصيدة طويلة رائعة بعنوان شكوى:

أسْمِعْهُمُو يا ربّ ما ألهمتني ... وأعِدْ إليهمْ يقظة الإيمان
وأذقهم الخمر القديمة إنها ... عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجميّ الدنّ لكن خمرتي ... صنع الحجاز وكرمها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم ... لكنّ هذا الصوت من عدنان

لقد سكر إقبال بمحبة العرب ودينهم ولكنه كان متفتح النفس تجاه الأمم جميعها • فلقد كتب فيما كتب هذه الأبيات في ديوانه « أرمغان حجاز » ينوّه فيها بقدر إيطالية حين مر بها :

« انظروا إلى هذه الأمة تتشبث بأمواج البحر الأبيض المتوسط الزرقاء • إنها تغنّي الآن كالقيثارة وترتفع شامخة كشجرة السرو • »

وقد ترجم ديوانه « جاويد نامه » وهو من أنفس الدواوين الى الإيطالية بعنوان « أشعار سماوية » • وذلك أن إقبالاً بارى به شاعر إيطالية «دانتي » في ملهاته المشهورة • وفي عنوان الديوان تورية بابنه جاويد •

لقد قلّ أن يجتمع لإنسانٍ ما اجتمع لإقبال من مواهب فطرية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعبقرية عالية وثقافة واسعة . كان عالماً ضرب بسهم وافر في ميدان الثقافة الإنسانية الزاخرة ، مطلعاً على تاريخ الفكر الفلسفي الشرقي ولا سيما الإسلامي وخاصة التصوف ، وكذلك على تاريخ الفكر الفلسفي الغربي ، واعياً لمكاسب الفكر الفلسفي الحديث حتى آخر المكاسب العلمية الفكرية . ونحن الذين نفخر بأنّا درّسنا ماراج في العصر الحاضر من عناصر نظرية المعرفة وفلسفة الفيزياء الحديثة وهي التي بدّلت وجه العالم ولا سيما في نهاية الربع الأول من هذا القرن نجد آثاراً لها وإشارات إليها في كتابات إقبال . ونحن نعلم أن إقبالاً قد توفي سنة ١٩٣٨ أي انه لم يغفل عن معالم الفكر الحديثة أيان نجمت وأين برزت .

وكان إلى ذلك شاعراً من أكبر شعراء عصره . بل كان أكبرهم وأوسعهم أفقاً وأعمقهم شعوراً وأشدهم سموّاً . وإذا كان الشعراء يكتبون أشعارهم بلغة واحدة فقد أتيح له أن يكتب أشعاره بالفارسية والأُردية وأن يكتب إلى ذلك بحوثاً فلسفية واجتماعية وسياسية بالانكليزية فضلاً عن معرفته لغات أخرى كالألمانية والفرنسية وإلمامه بالعربية والسنسكريتية .

وهكذا تضافرت الثقافة الواسعة والموهبة الشعرية النادرة والفلسفة المتأملة الواعية والإيمان العميق الدقيق في تكوين هذا المفكر الفيلسوف المصلح الشاعر العظيم .

لا شك أنه في الشعر والفلسفة الفارسيين يأتي متمّماً لأولئك الأفذاذ العالميين أمثال فريد الدين العطار وحافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي الذي كان إقبال معجباً به ــ ومن منا لا يعجب بمولانا جلال الدين ؟! ــ وإن كان يختلف عنهم في الاتجاه باختلاف العصر وصروف المجتمع وفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شؤون أخرى عدّة . كلٌّ من أولئك الأعلام ذو شخصية بارزة ومكانة مرموقة في عوالم الشعر والفكر والفلسفة والإبداع ، وإن كان إقبال يبتعد منهم في إلحاحه على فكرة الذات وتفرّدها . وهو في هذا الشأن يقترب من الشيخ محيي الدين بن عربي كما يختلف عنهم جميعاً في الاستفادة من الفكر الحديث ومن مكاسبه .

عاش إقبال في عهد شهد المدّ الأعظم لطغيان القوى الاستعمارية ولا سيما الانكليز ، كما شهد أمام هذا الطغيان غفلة الشرق عامةً والمسلمين خاصةً والعرب بوجه أخص ، ورأى تفرّق هذه الأمم والشعوب جميعاً . لقد نهض عظماء في الشرق وبين المسلمين وفي أكناف العرب أهابوا بالنوّام أن يستيقظوا وبالغافلين أن يتنبّهوا وبالمتفرقين أن يتجمعوا وبالمتواكلين أن يجدّوا ويعملوا . ولكن هيهات لصيحاتٍ قوية مخلصة أن توقظ ملايين الرقود كالأموات من دون تهيئة أسس فكرية ومادّية مكينة ورصينة تجاه حديد الغرب ورصاصه ولؤمه ودخانه . لقد عرف العرب الإصلاح السلفي في محمد بن عبد الوهاب ، والثورة الواعية المتنقّلة في السيّد جمال الدين الأفغاني ، والعلم الديني المستنير المتين في الشيخ محمد عبده، والتنديد بالاستبداد والتفرق في عبد الرحمن الكواكبي ، والوطنية الشابّة المتأججة في مصطفى كامل ، والإخلاص الغيور المصلح في خير الدين التونسي وأمثالهم ؛ كما عرفت الهند بعض زعماء الإصلاح أمثال السيد أحمد خان والسيد أمير علي (كلمة السيد هنا لقب كما هو للافغاني) . فكان أمثال هذين المصلحين إرهاصاً من بعض وجوه النظر بالفيلسوف الشاعر العظيم محمد إقبال .

لقد راع إقبالاً تخلف الشرق المرير بالنسبة لتقدم الغرب المادي كما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

راعه سيطرة هذا الغرب الذي رآه بلا قلب على مئات الشعوب وملايين الأفراد فنذر فكره وقلبه وقلمه للإصلاح وللنضال وللتنديد بالغزو وبالاستغلال .

وجد الغرب مفعماً بالنشاط زاخراً بالحركة ولكنه مجرد من المبادىء الخلقية الأصيلة فقير بالحب والايمان ، تكبله قيود المنطق بل تنهشه كالأفاعي . لقد سخّر الطبيعة لأغراضه ، ولكنه أخفق في محو البؤس الإنساني ، بل زاد هذا البؤس في آسية وإفريقية وبين شعوب أمريكة وأسترالية العريقة . أمامأساة الشرق فهي النزوع نحو المظهر الخارجي الخلاب الذي يظهر به الغرب لا نحو قدراته العلمية المبدعة . لقد عانى إقبال ما وجده في الشرق والغرب من انفصام فهو يقول :

« في الغرب العقل مصدر الحياة
وفي الشرق الحب قوام الحياة
إنما يدرك العقل الحقائق بالحب
فَيُثَبِّتُ مكاسب الحب
انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد
بالتوفيق بين العقل والحب »

وينظر إقبال حوله فلا يكاد يدع مشكلة إلاّ أولاها قبساً من فكره ، وأضاءها بسنا من بيانه .

لقد آذاه استغلال الإقطاعي للفلاح فسعى لتخفيف الضرائب عنه كما أشرنا قبلاً إلى ذلك ، وآذاه استغلال الرأسمالي للعامل أيان كان فناداه منبّهاً على مكانته في الإنتاج مقترنة بوهن حالته :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« أيها العامل الذي ابتلعه الرأسمالي المحتال ! لقد غَبَرَتْ حالتك قروناً على الغصون الواهية .

يدك هي الخالقة للثروة . ومع ذلك تمتد للحصول على الأجر ... لقد أطعمك ساحر الموت أوراق الحشيش . فظننتها أيها الغافل سكّر النبات . لقد سيطر عليك الرأسمالي بالحيل الماكرة . فغُلِبْتَ أيها العامل على أمرك بكل سذاجة .

تيقظ لأن أسلوب محفل العالم قد تبدد ، وابْتَدَأَ شأنك الآن في الشرق وفي الغرب . »

كذلك آذاه وآده طغيان بعض الحكومات على رعاياها . وهو الذي أشاد بالحرية وعرف مكانتها في تربية الشعوب فهو يقول :

« إلى اليوم ما يزال الإنسان شر فريسة لصيد الحكام . وإنها لقيامة كبرى أن يبقى الإنسان فريسة الإنسان . »

ويقول أيضاً : « لم يخلق هذا الهيكل الترابي في أول فطرته من تراب الجحيم ولا من تبر الرضوان . ولكن الحياة تخلق بالعمل جحيماً أو جنة . »

أحب إقبال العرب وفتن بلغتهم العظيمة ، ولا غرو فهي لغة القرآن ، لغة السماء زيادةً على كونها لغة العرب . وهو قد شحذ بأفكاره وأشعاره همم الهنود وأجّج بحماسته عزائم الفرس وأطرب بنغماته الكواكب والأفلاك حتى وصلت إلى السماء السابعة . ولكنه تمنّى لو تصل أصوات نايه الرخيم العذب القوي إلى مسامع العرب وتبلغ فحواها قلوبهم ، فيجمعوا شملهم ويعودوا أمّةً واحدة بعد أن صاروا أجزاءً متفرقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأباديد ، ويستأنفوا سبيل مجدهم الصاعد . لقد آلمه تفرقهم وتصدعهم منذ ذلك الحين ؛ فهو يتلهف على جمع شملهم ويناشدهم :

كل شعبٍ قام يبغي نهضةً وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمّةً لهف نفسي كيف صرتم أمما

لقد تقطعت أوصال البلاد العربية بعيد الحرب العالمية الأولى وتوزعتها الغزاة . وقع بعضها تحت مخالب الانتداب وبعضها في براثن الاستعمار فأصابت إقبالاً صدمة عنيفة ولكنه أبى أن يتشاءم أو يستسلم :

« إن سقط جبل من المآسي على العرب فلا حاجة إلى العويل .
إن الفجر لا يطلّ إلا بعد فناء آلاف النجوم . »

وكل فيلسوفٍ حقٍّ ومصلح كنفيٍّ لا بدّ من أن ينعم قلبه الأمل :

« أنا بشير زنابق الربيع
يتوقّد ضرام الحب في قلبي
لا تأنفْ مني اليوم إن وجدتني وحيداً
سوف تتوالى قوافل الورد تترى من بعدي . »

حتى في أنقاض الدمار كان إقبال يلمح شعاع أملٍ لحياةٍ جديدة أكثر حركةً وأبهى إشراقاً من الماضي .

لقد شهر عن إقبال أنه شاعر الإسلام وفيلسوفه الكبير الحديث . ولكنه عندنا شاعر العشق وفيلسوف الذات . إنه فيلسوف الانسان وشاعر المحبة الإنسانية . يتجه إلى الانسان ليجلو عن ذاته الصدأ ، ويبثّ فيه روح المحبة والعشق . ونحن يهمّنا أن نتبيّن ولو بإيجاز السبيل الفكري الذي يسلكه في الإصلاح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن هذا السبيل هو النفوذ إلى نفس المرء وشحذ مافيها من ذاتيـة مفردة ودفعها في ميدان العمل والرقيّ .

من المعلوم أن سقراط منذ القديم قد اتخذ في الفلسفة شعاراً له وهو « اعرف نفسك بنفسك » . ولما جاء الصوفية المسلمون تجاوز أحدهم وهو يحيى بن معاذ الرازي هذا القول فنوّه أن « من عرف نفسه فقد عرف ربّه . » ونحن نفهم من هذا القول أن سرّ النجاة وإكسير النجاح في غمار الحياة أن يسلك المرء السبيل الذي به يحقق مايحسن من قيمٍ رفيعـة ومجد مؤثّل . فيستطيع أن يبني ولو حجراً ما في صرح الحضارة الانسانية بتعاضده هو وغيره من الناس حتى يتم الرقي ويطّرد التقدم. ذلك أن الطرق إلى الله بعدد نفوس بني آدم كما أشار الى ذلك صوفي آخر . فالطريق القويم الخاص بكل امرىء هو الذي يستطيع فيه أن يتقن عمله ويحقق جانباً من المعالي ، وإلا كان ضائعاً في ميدان الحياة مسلوباً ، وهو لا يعي أن هذا الميدان هو درب الخلود .

القضية عند إقبال ليست مجرد معرفة فاترة تكشف دون أن تَحْفِزَ ، وتجلو دون أن تدفع . ذلك أن النفس إنما هي في ذاتها نفس بقواهـا الدافعة الحافزة الخلاّقة . أنّيتها حركة دائبة وجهاد متصل وتوتّر ناشط وكفاح مستمر وشعلة متوثبة النور . كل مايحول دون توهجها سفساف قبيح مرذول . وكلّ مايقوّيها ويزيد في نمائها ويزكّيها فهو سامٍ مستحب. لا معنى للحياة إن خلت من العمل والاجتهاد والحركة . ولا خير في حياة تمضي في صمت وسكون واستخذاء . ان الذات لتقوى بتوليد المقاصد وايجاد الرغبات وتجديد الأماني . والغايات الرفيعـة الجميلة تستهوي أصحابها وتبعث فيهم مَعِينَ القوة ورسيس العشق . هنالك شأن اسمه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخلود .. وهو يتهيأ في أحضان هذه الحياة التي نحياها . يقول إقبال : « غُصْ في البحر وحارب الأمواج فان خلود الحياة في الكفاح . السكون محال في الأرض . انصرام الليل مؤذن بانبلاج الصباح . وانتهاء عهد البراعم بداية لعمر الزهر . كل شيء هنا يتغير ويتبدل . »

ويقول أيضاً :

لقد دفنوا في التراب البذور فلم تَغْنَ في لحدها الهامد

ولم تنطفىء نارها في الحياة على طول مرقدها البارد

هذا التوقد الحافز هو العشق . فهو الذي يبعث الرغبات ، ويشعل في القلوب الجمرات . وهو الذي يغذّي الذات ، ويولد فيها سمو المقاصد وتحقيق الغايات . العشق هذا معناه طلبك الشيء لتجعله جزءاً من نفسك . وأسمى صور العشق إبداع القيم . العشق متصل بالذات وبفرديتها . إن العشق يجعل الطالب فريداً والمطلوب فريداً أيضاً . إنك إن طلبت أو عشقت مقصداً وتمنّيتَه فإن غيره لا يرضيك ولا يقنعك ولا ينقع غُلّتك . وهكذا يبدو ما تطلبه وتقصده فريداً في ذاته . إنه في إفراده مثلك تماماً ، لا يقوم غيره مقامه في إرضائك . والعشق هو الطاقة التي تحطم القيود ، وتتجاوز السدود ، وتتغلب على الحدود . والذات العاشقة تتجاوز الزمان والمكان . إنها قلم القضاء ومصداق القدر .

وهكذا يتصل في فكر إقبال العشق المتّقد بالعلم المنير . العلم يستدعي السؤالات ، ويدرك الصفات . والعشق يقتحم العقبات ، ويشهد الذات ، ويولّد المعجزات ، ويرفع الانسان فوق النجوم النيّرات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا يتمّ هذا دون مراحل ولا بغير شروط . ففي البدء تنشأ في الذات المقاصد ، وتتولد الرغبات ، وتبرعم الآمال . ثم تدخل الذات ميدان النضال ومضمار الجد والكفاح . وفي غمرة الكفاح والجد والنضال تتسلح بالمبادىء السامية ، وتهتدي بالإيمان العميق . فتضبط شهواتها ، وتشذب نزعاتها ، وتهذب طباعها ، وتوحّد اتجاهها . أوليس الرسول العظيم قد قال لأصحابه حين قدم من غزاة : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس » .

وهنا لا بد من أن نقف فينة عند هذا الأثر وإن كان في تخريجه بعض العلل[٢] . نوضح فحواه إيضاحاً ينسجم مع ما أراده إقبال . وعندئذ نوكد بالاستطراد المناسب مقصد الفيلسوف الشاعر دون أن نخرج من دائرة أفكاره .

يتضمن لفظ الجهاد اعتماد القوة في تغيير الواقع : واقع النفوس الباطن وواقع الحياة الخارجية . ولما كانت الأديان ثورة على الفساد وإحلالاً للنظام والوحدة لزم أن تتضمن تعاليمها اعتماد القوة في ذلك . لم تكن المسيحية كلها سلاماً . فلقد جاء في إنجيل متى قول السيد المسيح : « لا تظنوا أني جئت لألقي على الأرض سلاماً . لم آت لألقي سلاماً لكن سيفا »[٣] . وفي تاريخ المسيحية بالعصور الوسطى شواهد على ذلك صارخة . وكذلك غيرها من الملل . ذلك أن الانسان قد يضطر إلى حمل السلاح دفعاً للظلم وتحقيقاً للعدل وحفاظاً على الكرامة الإنسانية . وقد نشأ في العصر الحاضر التفريق بين الحرب العادلة والحرب الغاشمة . فالحرب والعدة والسلاح أمور خارجية لقهر المعتدين والمفسدين وكذلك هي رمز لقهر الانسان العدوّ الكامن في نفسه وهو التشتت والهوى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والنزعات الفاسدة حتى يحل بها النظام والعدالة والوحدة . فنهاية الحربين الخارجية والباطنة السلام . وانما اشتق الإسلام من السلام وهو غاية النفس والمجتمع . وهكذا يبدو حرب الأعداء أمراً يسيراً بالنسبة لحرب شتات النفوس وتوزعها . لأنه متى توحدت النفوس وساورها النظام والعدالة سهل التغلب على العدو الخارجي . ولهذا جاز استعمال لفظ الجهاد في الميدانين واعتبار جهاد النفس الجهاد الأكبر ، كما جاز اعتماد السلاح رمزاً للموعظة الحسنة والكلم الطيّب . وقد اشتق العرب من مادة فصل : الفيصل للسيف ، والمفصل بكسر الميم للسان . وقالوا : قول فصل ، وفصل الخطاب، وحكم فيصل. وجاء في أساس البلاغة « رب كلامٍ بالمِفصل أشد من كِلامٍ بالمِقصل » . وقالوا : سيف" مِقصل" أي قطاع ، ولسان مقصل أي حديد ذرب . وعندنا كذلك أن حمل الخطيب على منبر الجمعة أحياناً سيفاً من الخشب رمز لقوة الكلمة . وهذا قائم في طبيعة الأشياء . ويؤيّد صحة الرمز والاستعارة هذين عامةً ما جاء أيضاً في رؤيا القديس يوحنا « وفي يده اليمنى سبعة كواكب ومن فيه يخرج سيف صارم ذو حدين »(٤) ، وكذلك « ومن فيه يخرج سيف صارم ذو حدين ليضرب به الأمم . »(٥) فالسيف الخارج من الفم لا معنى له إلا الكلم . ووصفه ذا حدّين اشارة الى قوة البناء وقوة التدمير فيه .

وعندنا أن إقبالاً وعى كل الوعي مكانة البيان فنذر نفسه للشعر والفلسفة يدمّر الفاسد ويبني الصحيح في نفس الإنسان متوجهاً إلى كيانه الذاتي ، منسجماً مع مبدإ جهاد النفس .

وإذا ظفر هذا الجهاد وجرى كل امرىءٍ على هذه الأصول تضافرت الجهود وتلاقت الأعمال وتحول التشتت إلى التناسق والتفرق إلى التوافق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصار التجزؤ والانقسام إلى الوحدة والالتئام ، وسهل حلّ جميع العقد المنيعة المطلب والصعبة المرام . ذلك هو ملتقى الكمال للعلم والقوة وتلك نقطة الاتصال بين الفكر والعمل والعاطفة والعقل ، عندئذٍ تتهيأ للانسان خلافة الأرض . وهنا نجد فيلسوف الذات يرفع قدر الإنسان وينوه بعظمته الفكرية ونشأته الروحية ، ويوقع عليه المسؤولية الفردية والاجتماعية في تنظيم هذا العالم ، وذلك بالحرية الواعية الهادية والذاتية المتقدة والسمو المبدع :

أما أنا فلست أدري أين يعلو نظري
أنا تراب غير أنّ م الشمس دون جوهري

الإنسان إذن مسؤول في الحياة . هو صانع ذاته بالعمل والبناء والنضال والإتقان . وهو مدمرها بالتواكل والتكاسل والإهمال . إنه يكافح إذا عرف ذاته وجوهره ليسمو فوق كل من العالم الذي صنعه الانسان والعالم الذي خلقه الله . إنه جلاء هذا العالم وإنسان عينه على حد تعبير الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي . يتخيّل إقبال حواراً ممتعاً بين الله والانسان ليظهر سناً من السر الالهي في العالم . يخاطب الله الانسان : « أنا خلقت العالم من الماء والصلصال كما خلقتك . وأنت خلقت الحواجز الجغرافية لإيران وتركية والتتر وغيرها . جعلت أنا الفاكهة تنبت من التراب ، واخترعت أنت السيف والقوس والنشاب . أهْويت أنت على براعم الحديقة بالفأس . حبست أنت الطيور الصداحة في الأقفاص . »

ويجيب الانسان : رباه !

الليل أنت خلقته وأنا الذي اخترع السراج
والطين أنت صنعته فجعلت منه أنا الزجاج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والبيـد والغـابات صنـــــــعك والجبال الشاهقات
منهـا جعلت أنا الحـدا ئق والجنـان الزاهرات
وأنا الـذي من صخرها صقل المـــرايا اللامعات
وجعلت مـن سـمّ الأفا عي الرقش أنواع العلاج

فهل كان الإنسان مستحقاً للخلافة حين حمل الأمانة ؟

إن الأصالة ليست الانقطاع عـن الأصل . يأبى ذلك اللفظ العربي كما يأباه جذر مقابله الأجنبي originalité , originality . وهي ليست تكراراً للأصل وإلا غدت نسخاً ، ولا تشويهاً له وإلا انقلبت مسخاً ، ولا انحداراً بصوره الرائعـة إلى صور حائلة زائلة وإلاّ آلت فسخاً ، ولا جموداً ساكناً كالصخور الصمّ وإلا آلت رسخاً . بل هي نسغٌ يتخلّق من الأصل ، ويندفع بالعشق في الذات ، ويعلو بالفكر ، ويسمو بالنضال . ولعل شخصية إقبال مثال حيٌّ على هذه الأصالة الرائعة العالية .

حسبنا في ختام هذا الحديث أن نوضح ما نقصد إليه عن طريق فنه العظيم . ذلك أنه لم يتخلّ عن مضامين التراث التي وعاها ، ولا رفض قيم الحضارة الحديثة التي اطّلع عليها . وإنما كان وفيّاً لمطالب الحيـاة المستجدّة ، أميناً على خزائن التراث الرفيعة . وإذا لهج بعض الفلسفات الفنية الحديثة بفكرة « الالتزام » فانا لنجد فنّه من أوله إلى آخره ملتزماً بحب الانسان والسعي لإسعاده أيّان كان . ينوه برفعته ، ويشيد بسموه ، ويوجهه إلى أنبل الغايات وأعلى المقاصد .

وهو في أساليب تعبيره عن ذلك لا يقطع الصلة بين تشوّف الحاضر وصور الماضي . هل أذكر عنوانات كتبه : رسالة المشرق ، زبور العجم ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تحفة الحجاز ، جناح جبريل ، الرسالة الخالدة ؟! أو أذكر بعض القطع الشعرية الوجدانية الرقيقة مثل صدر الشاعر ، الحكمة والشعر ، العالم بلا قلب ، ميلاد آدم ، خسرة الشوق ، النهر ، قيمة الخطر ، الوجود والعدم. مأدبة العشق ، كلمة الحب ؟

لأورد ترجمة هذه القطعة الصغيرة « كلمة الحب » ذات الصور المحسوسة المتسلسلة يروي بعضها الخبر عن بعض ، وكأنها لمعان البرق . يقول إقبال :

« عندي خبر هذه الكلمة . هي جذوة القلب . هي سرٌ وليست بسر . أنا أنبئك بمن سمعها وأين سمعها . لقد سرقها الندى من السماء ، وأوحى بها إلى الوردة ، وسمعها البلبل من الوردة ، وحملها نسيم الصبا من البلبل . »

كل قصائد إقبال جديرة بالعرض السليم والشرح الدقيق . ولكني أتجاوزها لأنوّه بتعبير أصيل غدا متداولاً بين شعراء الشرق قديماً والغرب حديثاً ، وهو تشبيه النفس الإنسانية التي تَشُوقُها أنوار المعالي بالفراشة تطوف بالسراج المتقد المتلألىء . فكما أن الفراشة تطوف حول النور المتوهج ثم ترمي بنفسها فيه لتحترق وتضيء ، كذلك النفس في سعيها نحو المعالي تحترق مأخوذة بسنا المثل العليا .

ثمة أمثلة متعددة على ذلك عند سعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي وفريد الدين العطار . وقد تناقل الباحثون التصوير البارع الذي صوّره قديماً أحمد الغزالي أخو أبي حامد الغزالي صاحب الإحياء . وهو أن الفراشة تطوف عاشقة للنور . ولكن لهيب الشمعة ينعطف نحوها فيصطلمها ويتغذّى بها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهكذا يصبح العاشق قوتاً لمعشوقه ، وليس المعشوق قوتاً لعاشقه .

وقد جاء الشاعر الألماني المشهور « غوتي » فاهتدى بأساليب شعراء العرب والفرس واطلع على اللغتين العربية والفارسية ، وسمّى إحدى مجموعاته الشعرية « الديوان الشرقي للمؤلّف الغربي » وقد سبقت الإشارة إليه . كتب في هذا الديوان قصيدة بعنوان « الشوق السعيد »(٦) اتخذ فيها الفراشة رمزاً للذي يعشق النور ويحترق به ليتحوّل إنساناً أيّ إنسان ، لا مجرد طيف يغمره الظلام .

ولما جاء إقبال نفخ مع « بهار » أمير الشعراء الفرس لعهده في الشعر الفارسي روحاً فكرية قوية جديدة ، وكذلك بثّ في الشعر الأردي أسراراً جديدة . وقد عبّر أوجز تعبير عن حكاية الفراشة المحترقة . فهو يصرّح بأنها تحترق لتصبح هي نفسها شعلة مضيئة كالشمعة نفسها . هذا هو الوصال الحقيقي . ولحظة الاحتراق أفضل من العيش أعواما دونه :

أحب احتراقي بنار اشتياقي ولا أرتضي عيشة الخاملين
فناء الفراشة في النار يعلو حياة الجبان طوال السنين

ويقول أيضاً :

معنى احتراق القلب في الإخلاص أنّ القلب يصبح كله أنوارا
ولقد تحوّلت الفراشة شعلةً لما أن احترقت فصارت نارا

هذا الاحتراق هو احتراق الحب ، الحب المسكر المصطلم ، حب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الإنسان لأخيه الإنسان حتى لا يكون في الأرض ظلم ولا استغلال ولا طغيان .

ينشد إقبال ثملاً بهذا الحب :

لم ألْقَ في هذا الوجود سعادةً كسودّة الإنسان للإنسان
لما سكرت بخمرها القدسيّ لم أحتجْ إلى تلك التي في الحان

دمشق عبد الكريم اليافي

* * *

(١) كل مانستشهد به ههنا شعرا أو نثرا فهو مترجم وأفضل ترجمات اقبال الى العربية شعرا هي للصاوي علي شعلان ومحمد حسن الاعظمي كما سبق ذكره . وهي أكثر ما اعتمدناه في المقال ، كما اعتمدنا بعض ما ترجم له نثرا بالعربية .

(٢) ورد في بعض الروايات جهاد القلب بدلا من جهاد النفس ، كما أغفل بعضها هذين اللفظين . ذكر الحديث الغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » في فصل « بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة » من كتاب شرح عجائب القلب . قال العراقي مخرج أحاديث الاحياء : « أخرجه البيهقي من حديث جابر ، وقال هذا اسناد فيه ضعف . » انظر أيضا « كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس » للعجلوني الجراحي ، رقم الحديث فيه ١٣٦٢ . والحديث الضعيف الاسناد قد يكون متنه حسنا ومعناه قريبا من معدن النبوة ؛ يستشهد به للفائدة والموعظة الحسنة ، ولكن لا يتعلق به حكم شرعي . هذا ، وقد بلغ علم الحديث في الحضارة العربية الاسلامية درجة قصوى من الكمال والاتقان .

(٣) الفصل العاشر ٣٤

(٤) الفصل الاول ١٦

(٥) الفصل التاسع عشر ١٥

(٦) انظر القصيدة مترجمة نثرا في الديوان المذكور الذي نقله الى العربية الدكتور عبد الرحمن بدوي ، والقصيدة نفسها مترجمة شعرا في ذيل كتابنا « الشموخ والقناديل في الشعر العربي » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net